

فصل

وصف الله أفضل أهل السعادة بالإيمان
والهجرة والجهاد

obeikandi.com

فصل

وصف الله أفضل أهل السعادة بالإيمان والهجرة والجهاد، فقال:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿التوبة: ١٩-٢٢﴾. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وهذا الوصف باعتبارٍ يختصُّ بالمهاجرين على عهد النبي ﷺ، وباعتبارٍ آخر يعُمُّ الأنصار، وباعتبارٍ ثالث يعُمُّ كلَّ من اتصف بمعنى ذلك إلى يوم القيامة. وذلك أن لفظ «الهجرة» يُراد بها هجرة الوطن، لكن المقصود بها هجرة ما نهى الله عنه، كما ثبت في الصحيحين (١) عن النبي ﷺ: «المسلم من سلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». وهذا مَرُويٌّ من عدَّة طرق، وفي بعضها:

(١) البخاري (١٠) ومسلم (٤٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وليس عند مسلم الجزء الأخير من الحديث.

«المهاجر من هجر السيئات»^(١). وهذا المعنى يثبت للأنصار ولكل مؤمنٍ هجر ما نهى الله عنه إلى يوم القيامة، وهجرة الوطن بدون هذه لا تنفع، وهذه الهجرة بدون هجرة الوطن تنفع. لكن من هجر مع السيئات المباحات لأجل الله كهجرة داره وماله وأهله، فهذا أكمل. فالهجرة الأولى للمقتصدین، وهذه للمقربين.

ولهذا كان المهاجرون أكمل في هذا الوصف، فخصّوا بهذا الاسم، وقدموا على الأنصار. والأنصار خصّوا باسم الأنصار، والمهاجرون أنصارهم أيضاً، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. وهذا بعد قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ بَجْرَةٍ نُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. وكل المؤمنين مخاطبون بأن يكونوا أنصار الله.

وقد قال في صفة المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، فوصف المهاجرين بأنهم ينصرون الله ورسوله. لكن الأنصار كانوا في ديارهم وأموالهم، وهم مجتمعون متناصرون، فكانوا أكمل في وصف النصر، إذ كانوا أقدر عليه. والمهاجرون ما قدروا على النصر إلا بهم. ويوم بدر كان ثلاثة أرباع البدرين من

(١) أخرجه ابن حبان (١٩٦) عن عبد الله بن عمرو. وإسناده صحيح.

الأنصار، ويوم أُحد أكثر القتلى كانوا من الأنصار، والقراء السبعون الذين قتل لأجلهم أكثرهم من الأنصار، ويوم السقيفة، ويوم مُسيلمَة أكثر القتلى من الأنصار، وكانوا أكمل بهذا الوصف فخصّوا به. وإلا فالنصرة هي الجهاد، والمهاجرون مجاهدون، ومقصود الهجرة هجر السيئات، والأنصار هجروا السيئات. فلهذا كان قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠] يتناول الطائفتين، ويتناول كل من اتصف بذلك إلى يوم القيامة.

وهذا كفظائه إذا ذُكر الاسم مفردًا يتناول النوعين، وإذا ذُكر مقرونًا عطف أحدهما على الآخر، كلفظ الإيمان والعمل، والإيمان والإسلام، ولفظ البرّ والتقوى، والمنكر والفحشاء، وأمثال ذلك كما بسط في مواضع (١). فلما ذُكر لفظ الأنصار مفردًا في قوله: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ يتناول الطائفتين، ولما ذكر الهجرة والجهاد مقرونًا تناول الطائفتين، وإذا جمع بينهما في مثل قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] ميّز بينهما. وكذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]. ألا ترى أن الذين آووا ونصروا هم أيضًا آمنوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/١٤).

وأنفسهم، لكن ذكروا بأخصّ أوصافهم، وهما الإيواء والنصر، فإن هذا امتازوا به. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]. قالت طائفة من السلف^(١): هذه تتناول المؤمنين إلى يوم القيامة، كما في سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وهؤلاء التابعون وصفهم بالإيمان والهجرة والجهاد، لأن الناس يكثرون والأنصار يقلّون، وما بقي بالنسبة إلى أولئك دارٌ يُؤوون إليها الرسول وأصحابه. لكن هذا المعنى ثابت لكل من هُوَ جَرَّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَوَّاءَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَنَصَرُوهُ، كما أنه قد قال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّة»^(٢)، أي من أرض مكة وأرض العرب، لأنها صارت دارَ إسلام. وقد قال: «لا تنقطع الهجرة ما قُوتِلَ الْعَدُوُّ»^(٣) أي من دار الكفر، وكذلك النصر والجهاد لا يزال مأمورًا به إلى يوم

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٣٣/٢٢) والدر المنثور (٣٨٣/١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٧) ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس. وفي الباب عن غيره من الصحابة.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٠/٥) وابن حبان (٤٨٦٦) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨-١٧/٩) عن عبد الله بن وقدان القرشي، وإسناده صحيح.

القيامة. وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا أن لفظ «الهجرة» يتناول هَجْرَ ما نهى الله عنه، وقد قال أيضاً: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»^(١). ومجاهدة العدو الظاهر والباطن لا بدَّ فيه من احتمال المكروه، وهو ما يحصل للمجاهد من الإيلاء، كالظماً والمخمصة والنَّصَب، وكاحتمال أذى العدو بالقول والفعل. قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. بل لا بدَّ فيه من احتمال المكروه وبذل المحبوب: النفسِ والمالِ والأهل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤]. والسيئات المنهي عنها تشتهيها النفس وتُحِبُّهَا، فهجْرُها هجر محبوب النفس.

والمقصود أنه لا بدَّ أن يترك المؤمن ما تحبُّه نفسه لله تعالى، ويحتمل ما تكرهه نفسه لله، فبهجْرٍ ما تُحِبُّه نفسه لله مما نُهي عنه يكون من المهاجرين، وباحتمال ما تكرهه نفسه لله مما أُمرَ باحتماله يكون

(١) أخرجه أحمد (٦/٢٠، ٢٢) والترمذي (١٦٢١) وابن حبان (٤٧٠٦) عن

فضالة بن عبيد، وإسناده صحيح.

مجاهداً لنفسه ولعدوه. ولا بد أن يقع العبد في الذنوب التي تفتنه، بل قد يقع فيما يفتنه عن الدين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ الْآلَاءِ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وأمرهم بهذا هو من أعظم نعمه عليهم، وإذا يسرهم لهذا فقد أتمَّ النعمة عليهم، فإن كل ما يحبه الإنسان يفارقه بالموت، كما في الحديث: «أحبُّ من شئتَ فإنك مفارقه»^(١). فهو يفارقه بغير اختياره، فإذا فارقه باختياره لله كان أنفع له في الدنيا والآخرة. والمكارة التي

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٣) والحاكم في المستدرک (٣٢٥، ٣٢٤/٤) والبيهقي في الشعب (١٠٥٤١) من حديث سهل بن سعد، وفي إسناده زافر بن سليمان، وهو صدوق كثير الأوهام. والحديث حسن لطرقة، وقد حسنه المنذري في الترغيب (١١/٢) والحافظ في أماليه كما في فيض القدير (١٠٣/١). وانظر: السلسلة الصحيحة (٨٣١).

تَحْصُلُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ يَحْصُلُ مِثْلُهَا وَأَعْظَمُ مِنْهَا لِغَيْرِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا تَتِمُّ مَصْلَحَةُ أَحَدٍ إِنْ لَمْ يُنْبَ عَنِ نَفْسِهِ وَأَرْضِهِ، فَلَا بَدَّ لِكُلِّ إِمَّا أَنْ يِقَاتِلَ وَإِمَّا أَنْ يَذَلَّ لِمَنْ يِقَاتِلُ، فَمَنْ لَمْ يِقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الرَّحْمَنِ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، أَوْ كَانَ مَتَهَوِّرًا مَعَ هَوَّلَاءِ أَوْ هَوَّلَاءِ، وَمَعْلُومٌ أَنْ كَوْنَهُ عَزِيزًا خَيْرٌ مِنْ كَوْنِهِ ذَلِيلًا، وَلَا بَدَّ مِنْ مَوْتِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، وَخَيْرُ الْمَوْتِ الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَاءً إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]، كَسُتِّتَهُ فَيَمُنُ كَذَبَ الرِّسَالِ، فَإِنَّهُ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مَعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا يَذْكُرُ اللَّهُ، وَهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ عَذَابَ الدُّنْيَا، فَكَانَ مَا أَمْرًا بِهِ مِنْ هَجْرِ الْمَحْبُوبَاتِ الْمُنْهَيَّةِ عَنْهَا لِلَّهِ، وَمِنْ الْجِهَادِ وَاحْتِمَالِ الْمَكَارِهِ فِيهَا، وَبَذْلِ الْمَحْبُوبِ لِلَّهِ، هُوَ غَايَةُ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ولهذا كان الجهاد سَنَامَ الْعَمَلِ، وَفِي الْأَثَرِ: «مَنْ تَرَكَ أَنْ يُنْفِقَ دِرَاهِمَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفَقَ مِثْلَهَا فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ تَرَكَ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ أَخِيهِ خَطَوَاتِ اللَّهِ مَشَى مِثْلَهَا فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَجَّ لِحَاجَةٍ حَجَّ النَّاسُ وَرَجَعُوا وَحَاجَتُهُ لَمْ تُقْضَ»^(١). وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ

(١) أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ (١٣٦/٥) عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ نَحْوَهُ، وَفِي إِسْنَادِهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْشِ السَّقَطِيِّ، قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ (١/١٤٥): «نَكْرَةٌ لَا يُعْرَفُ، وَأَتَى بِخَبَرِ مَوْضِعٍ». ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ هَذَا الْحَدِيثَ. وَانظُرْ: السَّلْسَلَةُ الضَّعِيفَةُ (٥٠٣٠).

لعبادته، فمن لم يستعمل نفسه وماله في عبادة الله استعملها بغير اختياره في طاعة الشيطان، إذ كان لا بد لها من عمل، ولا بد للمال من مصرف، ولو حفظه مات عنه، فمال البخيل لحادث أو لوarith، لا ينتفع به صاحبه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، فهم يُعذَّبون بها، فتزهد أنفسهم وهم كافرون، فإن النفس المعلقة بها لا تُفارق باختيارها، بل تزهد وهي كافرة، لم يؤمنوا ويعملوا صالحًا.

وأيضًا فالصبر على ما يحصل باختيار العبد، كصبر الداعي إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما يُصيبه في ذلك من المكروه، ولو تركه لم يُصبه، وصبر المطيع والممتنع عن المعصية إذا أُوذي حتى يعصي، فصبر على الأذى ولم يعص، وصبر المؤمن على مفارقة محبوبه باختياره وعلى احتمال المكروه باختياره = هذا الصبر أفضل من الصبر على المصائب التي لا حيلة له في دفعها، كالمرض وموت الأقارب، والجائحة التي تذهب بالمال، فإن هذا إن يصبر وإلا فلا فائدة له في الجزع، وهو لم يُمكنه دفعها، ولهذا يشترك الناس في هذه المصائب، المؤمن والكافر. وأما تلك فإنما حصلت بسبب إيمانه وطاعته لله ورسوله، فعلى ذلك أُوذي، فإرادته واختياره حصل الأمر المكروه الذي يُريد أن يصبر عليه. فهذا أزركى نفسًا وأعظم محبةً وصبرًا على طاعته، وأعظم تركًا لمحبوباته وفعلاً لمكروهاته لله. ولهذا كان مَنْ

كَمُلْ بهذه الطريق أكملُ مِمَّنْ كَمُلَ بتلك من الأنبياء والصالحين، فإن هذا حصل المقصودُ باختياره، وذلك ابتلاه الله بما يحصل المقصود بغير اختياره.

وللنوعين أمثلة، فصبر المصيبة مثل صبر يوسف على فراق أبيه وأهله، واسترقاق الغير له، وصبر الاختيار مثل صبره على الحبس لثلاثين سنة، والفاحشة، فهذا الثاني كان أفضل له، ولهذا نُقل من الأول إليه، فلما كَمُلَ بالثاني مَكَّنَه الله.

ومثال الأول صبر يعقوب عن ابنه يوسف، ومثال الثاني صبر الخليل على أن يذبح ابنه، فإن الخليل كان يذبح بكره، لم يكن له غيره، وأراد أن يذبحه باختياره، فأسلم الأب والابن لله. وهذا أعظم من حال إسرائيل، فإنه فرَّق بينه وبين يوسف بغير اختياره، وصبر حتى رده الله عليه. والله تعالى يبتلي كل واحد بحسب حاله، فالخليل أعظم وأفضل، فاحتمل هذا البلاء الذي لا يحتمله غيره لو ابتلي به، بخلاف صبر المصيبة، فإن الصبر عليه موجود كثيرا. وكذلك صبر نوح وهود وصالح وموسى على تكذيب الكفار وأذاهم لهم هو من أعظم النوعين، وكذلك صبر نبينا محمد ﷺ ومن آمن معه على أذى الكفار لهم بأنواع الأذى، ثم صبرهم لما هاجروا على الجهاد.

هذا الصبر أفضل النوعين، فلا جرم كان أهله أفضل الخلق عند الله، وهذا لا يحتمله كثير من أولياء الله، فيبتليه الله بمصائب يصبر عليها ليلج

بذلك منزلته، مثل ما ابتلي عثمان، وبشره النبي ﷺ بالجنة على بلوى تُصيبه^(١). فهذه البلوى نال منزلته، إذ لم يكن معه من القوة ما يصبر صبرَ أبي بكر وعمر. وأبو بكر كان أصبرَ من عمر وأعظمَ يقيناً، فلهذا لم يحتج إلى مثل الشهادة التي حصلت لعمر، وكذلك عليُّ ثالث الشهداء، أكمل الله بالشهادة أمره، وكذلك الحسين وغيره، كانت المصائب والشهادة في حقهم وحق أمثالهم مما أنعم الله به عليهم، وبلغهم به من المنازل التي تناسب حالهم، إذ كان الحسن والحسين لم يحصل لهما من الابتلاء ما حصل لأبيهما، لأنهما ربياً في عز الإسلام، فابتليا بما رفع الله به درجاتهم بحسب حالهم.

وقد قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨-٤٩]. وقال: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكُكُمْ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨-٥٠]. وقال: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فأمره أن يصبر الصبر الاختياري كما صبر أولو العزم، فيصبر لحكم ربه: الحكم الأمري بامثال أمر ربه في تبليغ الرسالة ودعوة الخلق وبيان ما بُعث به، والحكم المقدّر بأن يصبر على تكذيب المكذبين وافتراءهم عليه وعداوتهم له. قال

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٥) ومسلم (٢٤٠٣) عن أبي موسى الأشعري.

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فلا يجزع ولا يُغاضب، فيحتاج أن يُتلى بما يصبر عليه صبر المصائب. فإن ذا النون: ﴿ذَهَبَ مُغَضِّبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، و﴿أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [١٤٠] فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [١٤١] فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [١٤٢] فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [١٤٣] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ٤٠-٤٤]. والمسبِّح يتناول من كان مسبِّحًا قبل ذلك، ومن كان مسبِّحًا في بطن الحوت. ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [١٤٥] وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ [١٤٦] وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ﴾ [١٤٧] فَاتَمَّوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٨]. وهذا من أعظم البلوى، وهو ﷺ صبر على ما أصابه لما ألقى في بطن الحوت، ودعا ربه واعترف بذنبه فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وقد ثبت في الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»، و«من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»^(٢).

(١) البخاري (٣٤١٣) ومسلم (٢٣٧٧) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٠٤) عن أبي هريرة.

وأما أولو العزم الذين أمر الله نبيّه أن يتأسى بهم ولا يتشبهه بذى النون، فقد كان ﷺ إذا أوذى يقول: «قد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر»^(١).

وأهل المصائب إنما يكونون صابرين إذا صبروا عند الصدمة الأولى، كما قال النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٢). وإلا فمن لم يصبر صبر الكرام سلا سلا سلا البهائم. والعاقل يفعل في أول يوم ما يفعله الأحمق بعد ثلاثة أيام.

فالإنسان إذا أوذى على إيمانه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتبليغ رسالات الله وإظهار دين الله، وذمّ من يخالف دين الله، كما أوذى الرسل وأتباعهم، كان صبره من القسم الأعلى، مثل صبر الرسل وصبر المهاجرين والأنصار. وكثير من الناس إذا أوذى على الحق تركه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنَ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنَ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-١٣].

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٦) ومسلم (١٠٦٢) عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٢) ومسلم (٦٢٦) عن أنس بن مالك.

ثم هؤلاء إذا أوذوا على الحق فرجعوا عنه، ثم تابوا وجاهدوا في سبيل الله قَبْلَ الله ذلك منهم، قال تعالى لما ذكر المرتدين طوعًا وكرهًا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

فمن حصل له إيمانٌ وطاعة، ففتنه شياطينُ الإنس والجن حتى رجع عن ذلك، ثم إنه هاجر فهجر تلك السيئات، ثم جاهد العدو، وصبر على الإيمان والطاعة فلم يرجع، وصبر على ظلم الظالم له، ثم إنه هجر ما له من المباحات لله لِيَتِمَّ إيمانه، فهذا أعلى. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

فَهَجَرُ السيئاتِ فرضٌ على كل أحد، وهجرُ المباحات من الوطن والأهل والمال إن لم يَتِمَّ الواجبُ إلا به كان واجبًا، وإن لم يتم المستحبُّ إلا به كان مستحبًّا. ولهذا تجب الهجرة على من يُمنع من الواجبات وتُستحبُّ لغيره. وفي الصحيحين (١) أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الهجرة، فقال: «ويحك! إن الهجرة شأنها شديد، فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يترك من عملك شيئاً».

(١) البخاري (٢٦٣٣، ٣٩٢٣) ومسلم (١٨٦٥) عن أبي سعيد الخدري.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]. وفي حديث بريدة الذي في صحيح مسلم^(١): «وإذا حاصرت أهل حصنٍ فادعهم إلى الإيمان، ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين، وإلا كانوا كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على أعراب المسلمين، وليس لهم في الفياء نصيب».

وهذه الأمور لبسطها موضع آخر، والمقصود أن معنى الهجرة العامة هي هجر السيئات، وهجرها بعد الدخول فيها هو التوبة، فهذا المعنى يُلحظُ في هذا اللفظ. ولهذا لما قال النبي ﷺ: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُم بِالسَّنَةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السَّنَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِنًا»^(٢) = جعل طائفة من العلماء مما يدخل في تقدم الهجرة تقدم التوبة وتقدم الإسلام، فإذا كان الرجلان قد أسلم أحدهما قبل صاحبه، أو تاب من السيئات قبل صاحبه، فهذا أقدم هجرة وأركاناً في وطنيهما، فإن المقدم أسبقهما إلى الطاعة باختياره، ثم أسبقهما إلى الطاعة بفعل الله تعالى، وهو كِبَرُ السَّنِّ. والله أعلم.



(١) برقم (١٧٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٦٧٣) عن أبي مسعود الأنصاري.